الخَطْم

محمد إسماعيل

يسمع طوال الليل كلباً «مشلوعاً»، فلتت مساميره، وظلّ يتنفّس وراء الحائط، يقض مضجعه، بخوف، يمنعه من الذهاب للمرحاض؛ فيستوثق من قفل الباب جيّداً، لينام على مضض. وأحياناً يضطرّ للتبول في الأواني المتوفّرة قربه، في الغرفة.

كأنّ الكلب الذي يتنفّس خلف الحائط، لوحٌ منفلت من سقف المرحاض، الملاصق لغرفته. تحرّكه ريح الفلاة؛ فيبعث ما يشبه الأنين.

صباحاً، أنذر السُّريّةَ قاطبةً، بالتجمع في ساحة العرضات، فامتثلوا لنذيره.

وعندما أدّى رئيسُ العرفاء التحيّةَ: «سيّدي، السريّة حاضرة، كما أمرتم»، ارتطمتْ يدُه بباب الناموسية الثانوية، مانعةِ البعوض، ارتطاماً خفيفاً، لم يشعر به، أو بالخدوش شبه الدامية، على ظاهر كفّه.

تحرّك بلامبالاة واثقة، صوب النافذة، وراح يتأمّل في السريّة المتجمعة في ساحة العرضات.

اخترقت نظراتُهُ النافذةَ، كأنّها تزيح آثار خيلٍ جَمَحَتْ فوقَ زجاجها، فلطّخته بالوحل، ثم غادرت على المجهول.

ترجل من سيّارته «الواز» الصغيرة، مستعرضاً صفوف الفصائل. ثم أصدر أوامره. فصاحوا جميعاً: «نعم سيّدي»، بهبة واحدة، تشبه ثغاء حَمَلٍ جَمَعيّ، مخشوشنِ حبالِ الصوت؛ ربما لثقل السكين المعلّقة في عنقه، على أُهبةَ الابتهال إليه، قرباناً لإله أصمّ، لا يبغض الخطايا، ولا يثيب الحسنات.

والحقّ أنّه لم يصدر أيّة أوامر، بل تلفّظ بكلمات لا يعنيها، تشبه الهمهمة. لم يحرّك شفتيه، وإنّما هو احتكاك الأحذية العسكرية الثقيلة، بالأرض، ذاك الذي سمعوه، كما لو كان تعليماتٍ صادرةً عن الآمر، حين ارتقى «وازَه» مغادراً.

صوتُ المحرّك البخاريّ في كلمة «واز»، يثير لدى السامع تصوُّراً بلورياً، يحلّق في الرأس، مثل حشرةٍ طيّارة سوداء، تتنقّل بين الأحراش القريبة، عند طرف المعسكر، تحيط بها هالةٌ من طنين.

لكن الجميع، حتى الذين لم يُساقوا للخدمة العسكرية، اطّلعوا على نموذج «الواز» ماثلاً، في شاشة التلفزيون المناضل، وهو يعرض صورَ الأمراء، العائدين من المعركة، حفاةً، هاربين بالنصر.

ساروا في رتل مهيب، يضربون أقدامهم بحزم وأناة، و.. يثيرون التراب، كأنّهم بهلوانات تتأرجح على سلك كوني وضّاء، يَصِلُ بين ضلفتي المعسكر المنفتحتين، تطلاّن على ظلمات العالم السفلي، تصطف على وجوههم آثارُ شروخ ورصاص، خراتها الحرب، أثناء موتٍ نجوا منه بصعوبة، تماماً، مثل سهولة موت الآخرين، رفاقهم. هناك. حيث ينسى المرءُ ولدَه وأمّه وأباه... ينسى عبوديته لإله يرضى بما يحدث تحته.. على الأرض.

كانوا، وما انفكوا، وسيظلون، أبواباً في مبانٍ، لا وجود لها، على خريطة الزمن.

شاهَدَ في سقف المرحاض، الملاصق لغرفته، لوحاً جباناً، انتزع دويُّ القصف معظمَ مساميره، وظلّ يتأرجح.. تحرّكه الريحُ، ليلاً، بخسةٍ وغباء؛ فلا يمتثل لشجاعة أوامره الذكية.

العراق

وكان يعبّر عن فرحته بضحكات عالية وهمهمات مبهمة، جعلتهم يضحكون وهم يرونه يطير فرحاً وهو يملأ الدلو من الطلمبة. وبعد أن اختفى بعيداً عن أعينهم في نهاية الحظيرة، جاءتهم أصواته الفرحة المختلطة بطرطشات الماء فوق بدنه، وهو يغتسل تحت وقع عيني جاموسته الواسعتين. وكان يرتدي ملابسه ويعاتب الحمار مقلّداً إياه وهو ينظر إليه ببلاهة. كانت شقيقاته يُحطْنَ به: واحدة تضبط اعوجاجَ طاقيته، وأخرى تسوّي جلبابَه بكفّيها، وثالثة تفرد له شالَ عمّته الأبيض. كنّ يودعنه وهو يمضي خلف أبويه وجدّته بالتصفيق والغناء متّجهاً لبيت العم عوف لخطبة مفيدة..

«– ياالله يا عيسوي.. ياالله يا ضناي»

صوت الجدّة يجرح صمت الليل. لم يكن هناك بُد ممّا هو لا بدّ منه، وهو يرفع يده بتردّد نحو مفيدة:

«في بيت العم قدمتْ له مفيدة الخجولة كوبَ الشراب الأحمر وهو في قمّة الانبساط. كانت الجدّة تمسك بيده وبيدها، وأدرك أنّها تتحدّث بشأنه وهي توصيها:

«خُذي بالك منه يا مفيدة.. طيّب وقلبه أبيض».

لاحظت الجدّة الأصبعَ المتوترة المترددة:

– «ياالله يا عيسوي.. ياالله يا ضنايَ»

كان عيسوي مغمضاً عينيه، يكاد يغيب عن وعيه وهو يدفع إصبعه التي استقرت في جسد مفيدة وهي تصرخ، والجدّة خضرة – تدفع غيرَ قادرة – يده بعيداً:

«– مش هنا يا عيسوي.. مش هنا يا عيسوي».

والإصبع المتردّدة تغوص في لحم البطن، وصوتُ مفيدة المتواصلُ العلوُّ المستنجدُ يصل حتى المندرة الخارجية، فيهرول الجميع إلى الحجرة التي اكتظت بهم شطراً طويلاً من اللّيل.

ولأوّل مرّة يدرك عيسوي المهموم أنّه أبكم يعجز لسانه عن توضيح الأمر، وأنّه أصم غير قادر على سماع كلماتهم لمفيدة... وهم يطمأنونها ويهدئون خاطرها:

«– معذور يا مفيدة...»

كان غارقاً في هواجسه وأفكاره، وقلبه يدقّ، والدم الذي اضطرم في عروقه يجري كالنّهر الموشك على الفيضان، وصدره يغلي كمرجل أوشك على الفوران. أدرك أنّ الأمر لم يعد يُحتمل، وأنّ عليه تأكيد رجولته، لا أمامهم فحسب – فلم يعد يهمّه أمرهم – بل أمام مفيدة التي قبلت أن تعاشره في أيامها المقبلة. استجمع عزيمته وهو يصيح فيهم ويدفعهم بغلظة خارج حجرته واحداً تلو الآخر... بما فيهم الجدّة، التي أقلقها وأخافها هياجُه المفاجئ وهو يمسك بكفّها فتنصاع له خارجة معهم. لكنّهم لم يبتعدوا كثيراً هذه المرّة، بل تجمّعوا في صحن الدار انتظاراً لخروجه براية الانتصار.

أوصد بابه ووقف في مواجهة مفيدة، المضطربة، الغارقة في خجلها، المنكمشة كقطّة مذعورة. كان عليه أن يروّضها برفق، ويبتسم لها، ويبعث الطمأنينة في قلبها الواجف. ولما تأكّد له هذا تقدّم نحوها وهو يستعدّ للمحاولة الثانية ويتحسّب ألاّ يخطئ الهدفَ هذه المرّة.

مصر